مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد 15 (العدد 4) 1414 هـ - 1994م.

الخطابة الاجتماعية في صدر الاسلام

د. محمد ألتونجي* عدنان محمد أحمد*

□ ملخص □

تحاول هذه المقالة أن تسلط الضوء على لون من ألوان الخطابة التي شهدها عصر صدر الاسلام، وهو الخطابة الاجتماعية. فقد تطورت الخطابة في صدر الاسلام، وازدهرت ازدهاراً كبيراً بتأثير عوامل مختلفة من أهمها الثورة الاسلامية التي شهدها المجتمع العربي في ذلك العصر، والتي تركت آثارها على بنية ذلك المجتمع وعلى التاريخ العربي الطويل قديمه وحديثه. وهذه المقالة تتحدث عن أنواع الخطابة الاجتماعية في ذلك العصر، وتحاول أن توضح مدى اهتمام الخطباء المسلمين بالجانب الاجتماعي من الحياة الاسلامية.

---

* أشرف على هذا البحث الدكتور محمد ألتونجي الأستاذ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة حلب - سورية.

قام بهذا البحث عدنان محمد أحمد طالب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة تشرين - اللاذقية - سورية.

الخطابة الإجتماعية:

الواقع أن الخطابة الاجتماعية في هذا العصر لم تكن بمستوى التحولات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع العربي، ولم تكن بمستوى النشاط الاجتماعي في ذلك المجتمع. فتطور المراكز الحضرية على حساب البداوة، واجتماع مجموعات من القبائل، أو من أفراد القبائل في أمصار معينة أو مواضع محددة، واختلاط العرب بغيرهم عن طريق الفتوحات، وتوسع رقعة المجتمع العربي، وتدفق الأموال... إلى غير ذلك من الأمور، كل ذلك يوحي بحياة اجتماعية نشطة من شأنها أن تدفع الخطابة الإسلامية إلى هذا الاتجاه الاجتماعي.

غير أن ما وصلنا من الخطابة الاجتماعية -ونعني بها مجموعة الخطب التي قيلت في أغراض تتصل بالحياة الاجتماعية- أقل بكثير مما نتوقع. فهل كان الجانب الاجتماعي من الحياة مهملا عند الخطباء المسلمين؟ بالتأكيد لن نجيب بالموافقة على سؤال كهذا، فقد اهتم الخطباء بهذا الجانب اهتماماً ملحوظاً، وهذا ما يبدو واضحاً في خطبهم السياسية والدينية، فقلما تخلو خطبة من تلك الخطب من التعرض لأمر اجتماعي، أو ناحية اجتماعية.

والدين الإسلامي لم يكن طقوساً دينية، ولم يكن مجرد صلاة وصيام... وإنما كان نظاماً اجتماعياً أيضاً يسعى لبناء مجتمع إسلامي جديد تسوده العدالة والاستقرار، وهذا النظام الاجتماعي جزء لا يتجزأ من العبادة، والتمسك بأهدابه هو تمسك بأهداب العقيدة والدين، والخروج عنه إثم يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة. والواقع أن وظيفة الدين الاجتماعية أمر لا سبيل إلى نكرانه "فكيفما فسرنا الدين، سواء أكان اجتماعياً بالجوهر أو بالعرض، فإن ثمة ناحية لا سبيل إلى الشك فيها، وهي أن الدين قد قام دوماً بوظيفة اجتماعية، وهذه الوظيفة معقدة اختلفت باختلاف الزمان والمكان"[1].

لقد وضع الإسلام إطارات روحية وفكرية، وحاول أن يصوغ شخصية المسلم ضمنها، وكان على الأدب أن يقوم بدوره في هذا المجال، وقد سعى الخطباء المسلمون من أجل بناء الشخصية الإسلامية الجديدة، ولما كانت الحياة الإسلامية، بمختلف جوانبها، تهتدي بهدي الدين الحنيف فقد كان من الطبيعي أن يختلط الحديث عن الجانب الاجتماعي بالحديث عن الجوانب الأخرى. وقد كان لتأكيد الجانب الاجتماعي أثره الطيب في تثبيت الأفكار الجديدة في أذهان المسلمين. فالأنظمة في نهاية الأمر "أنظمة تتألف من أفكار"[2]، وبمقدار ما يكون إيمان المسلمين -نظرياً وعملياً- بهذه الأفكار بمقدار ما يحقق المجتمع من نجاح يصبو إليه. لأن هذا الايمان سينعكس على سلوك

أفراد المجتمع الذين يؤمنون بتلك الأفكار، وعلى مواقفهم، فلا ".. قيام ولا قيمة للنظم الاجتماعية، بل لا قيمة لهذه النظم على الإطلاق إلا إذا كانت محوطة بولاء الأفراد وتأييدهم وتعضيدهم"(3).

ولكن لابد من الإشارة، هنا، إلى أن ذلك لا يعني أن إقامة مجتمع إسلامي يمكن أن تتم بمجرد طرح أفكار ونشرها، ذلك أن تقبل الناس لهذه الأفكار وإيمانهم بها قد يستغرق زمناً طويلاً وقد لا يتحقق عند كثيرين، ولذلك فإن التدريب على التزام السلوك أمر هام، فلا يكفي، مثلاً، تعليم أفراد المجتمع أن الكذب صفة مذمومة يجب الابتعاد عنها، وإنما يجب أن يدعم هذا التعليم بعقوبات رادعة للكذب.

والواقع أن الدعوة إلى القيم الأخلاقية الجديدة بدأت قبل الهجرة إلى المدينة، وكانت السنوات التي قضاها الرسول (ص) في مكة مفعمة بالنشاط لنشر تلك القيم الإسلامية والدعوة إليها. والخطبة التي ألقاها جعفر بن أبي طالب(4) بين يدي النجاشي ملك الحبشة شاهد على ذلك ودليل، فقد قال عندما سأله النجاشي عن الدين الذي فارقوا فيه قومهم "أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث إلينا رسولٌ منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام..."(5)

وذكر الصيام في هذه الخطبة، مع أنه لم يشرع إلا بعد الهجرة إلى الحبشة، لا ينفي صحتها كما يرجح بعضهم(6)، فإذا سلمنا أن المهاجرين لم يطلعوا على أمر الصيام، أفليس من الممكن أن تكون لفظة الصيام قد أضيفت إلى هذه الخطبة، فيما بعد، لاقتران الصيام بالصلاة والزكاة..

ونحن لا نريد، هنا، أن ندرس الأفكار الاجتماعية الواردة في الخطابة الإسلامية، وإنما سنحاول أن ندرس الخطب التي قيلت في مواقف اجتماعية. وقد حفظت لنا المصادر مجموعة من هذه الخطب يمكن أن نقسمها إلى الضروب التالية:

آ- الخطب الاجتماعية الخالصة

ب- خطب الوفادات

جـ- خطب الإملاك

د- خطب التأبين

هـ- الوصايا الاجتماعية

و- خطب الوصف.

آ- الخطب الاجتماعية الخالصة:

وتهدف هذه الخطب إلى شرح موقف من المواقف المتعلقة بالحياة الاجتماعية وتبصير المسلمين ببعض أمورهم الاجتماعية. ومن الطبيعي أن تدور أفكار هذه الخطابة في فلك القيم التي يدعو إليها الدين الجديد، وأن تهتم كثيراً بالدعوة إلى العمل الصالح والتحذير من المعاصي. ولم يغفل الخطباء أهمية الإشادة بهذا الدين والتنويه بأفضاله، في هذا المقام، فأشاروا كثيراً إلى هذه النعمة التي أنعم الله بها على الناس، وهي الإسلام الذي جعلهم متحابين بعد تباغض، مجتمعين بعد تفرق، أقوياء بعد ضعف، مسلمين بعد شرك، واقترنت تلك الإشارات بوجوب شكر هذه النعمة لأن الكفر بها يؤدي إلى سلبها.

كذلك تدعو هذه الخطابة إلى التزام الجماعة الإسلامية والاندماج فيها، لما يحققه ذلك من وحدة وقوة للأمة الإسلامية. وتحض على التمسك بالقيم التي يدعو إليها الإسلام والتي من شأنها أن تحقق المحبة والاطمئنان كالاهتمام بصلة الرحم، والابتعاد عن الغيبة والنميمة والتكبر والغدر...، والتزام الصدق والوفاء والتواضع.. وعدم الخلوة بالنساء، وعدم السماح لهن بالتبرج وإظهار المفاتن لما في ذلك من مفسدة لهن وللمجتمع... إلى غير ذلك من الأمور ذات الصلة بالحياة الاجتماعية العامة، يقول علي (ر) في خطبة له: "إنه لا ينفع عبدا وان أجهد نفسه، وأخلص فعله -أن يخرج من الدنيا لاقيا ربه بخصلة من هذه الخصال ليتب منها: أن يشرك بالله فيما افترض عليه من عبادته، أو يشفي غيظه بهلاك نفس، أو يعز[7] بأمر فعله غيره، أو يستنجح حاجة إلى الناس بإظهار بدعة في دينه، أو يلقى الناس بوجهين، أو يمشي فيهم بلسانين..."[8]

وفي بعض الأحيان كانت الخطبة الاجتماعية تتحول إلى مجموعة من المواعظ المتفرقة كقول عبد الله بن مسعود[9] في خطبة له: "خير الغنى غنى النفس، وخير ما ألقي في القلب اليقين، الخمر جماع الآثام، النساء حبالة الشيطان. الشباب شعبة من الجنون. حب الكفاية مفتاح المعجزة. شر الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبرا، ولا يذكر الله إلا هجرا[10]. أعظم الخطايا اللسان الكذوب، سباب المؤمن فسق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية..."[11]

ولا تخلو هذه الخطابة من الحديث عن أمور اقتصادية، كالبيع والشراء وغير ذلك، كما نجد في خطبة عبادة بن الصامت التي خطبها في الشام، إذ يقول: "يا أيها الناس، إنكم أحدثتم بيوعا لا أدري ما هي، ألا إن الفضة بالفضة وزنا بوزن تبرها وعينها، والذهب بالذهب وزنا بوزن تبره وعينه، ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يدا بيد والفضة أكثرهما، ولا يصلح نسيئه. ألا ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير والشعير أكثرهما..."[12]،

والخطيب يشير إلى أن من زاد أو ازداد فقد أربى.

ب- خطب الوفود

وهي تلك الخطب التي كان يلقيها خطباء الوفود التي وفدت على الرسول (ص) أو على أحد الخلفاء الراشدين (ر) أو الولاة، إما لإعلان الإسلام -وهذا ما حدث كثيراً في عهد الرسول (ص)- أو لقضاء حاجة من الحاجات، أو للشكوى والاستعطاف... وفي هذه المواقف يكون الخطيب من ذوي المنزلة في قومه، وممن يعتد برأيهم، ولولا ذلك لما قدموه ليعبر عنهم ويمثلهم.

وأول ما يلاحظ على خطب الوفود التي وفدت على الرسول (ص) وضوح بعض النزعات الجاهلية فكثيراً ما يجنح الخطباء إلى الفخر بأقوامهم على طريقة الجاهليين. ومن الخطب المشهورة في هذا المجال الخطبة التي ألقاها عطارد بن حاجب[13] بين يدي رسول الله (ص) عندما وفد عليه أشراف من بني تميم فقال: "الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن[14]، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالاً عظاما، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عداداً، وأيسره عده، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم....[15] فطلب الرسول (ص) من ثابت بن قيس بن الشماس[16] أن يجيب الرجل، فقام فحمد الله وذكر نعمة الإسلام التي أنعم الله عليهم بها، وذكر فضل الرسول (ص) وقال: "فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا..."[17].

وليس غريبا أن تحمل خطب الوفود، تلك، سمات جاهلية، إذ لم تكن الوفود قد أسلمت في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تأتي من البادية قبل أن تتأثر بالإسلام بشكل واضح، وخطابتها، عندئذ، تبدو جاهلية من حيث المعاني ومن حيث الألفاظ والتراكيب أيضا. فعندما قدم وفد من همدان على الرسول (ص) قام مالك بن نمط[18] بين يديه (ص) ثم قال: "يا رسول الله نصبيه[19] من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج[20]، متصلة بحبال الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم. من مخلاف خارف[21] ويام وشاكر[22] عهدهم لا ينقض عن سنة ماحل[23] ولا سوداء عنقفير[24] ما أقام لعلع[25] وما جرى اليعفور بصلع[26][27]. وهذه الغرابة في الألفاظ نلخصها أيضاً في خطب الوفود التي وفدت على الخلفاء (ر) لقضاء بعض الحاجات، كقول الأحنف بن قيس عندما قدم مع وفد قومه على عمر بن الخطاب (ر) "..... فإلا ترفع حسيستنا[28] وتنعش ركيسنا[29]، وتجبر فاقتنا، وتزد في عيالنا عيالا، وفي رجالنا رجالاً، وتصفر[30] درهنا، وتكبر

قفيرنا[31]، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا"[32].

ويغلب على خطب الوفود القصر والإيجاز، وإن كانت خطبة الأحنف قد مالت إلى الطول قليلاً. وهي ذات جمل قصيرة في الغالب، وقد تميل إلى السجع أحياناً، ولم يكن الخطباء يتمثلون فيها بشيء من الشعر أو القرآن -بالنسبة إلى الوفود المسلمة- ولا بشيء من الأمثال. ولا ريب في أنهم كانوا يهتمون بهذه الخطب ويبذلون جهداً في تجويدها وتنميقها لكي تحظى بالإعجاب. ثم إنها لم تكن تمثل الخطيب وحده، وإنما كانت تمثل القبيلة أيضاً، والوفد الذي جاء، وكان ذلك من دواعي الاهتمام بها.

جـ- خطب التأبين:

كما كان الشعراء يؤبنون المتوفى في قصائدهم. ويشيرون إلى مناقبه وسجاياه، كان الخطباء يفعلون ذلك عند كل رجل فقد من ذوي المكانة والشأن، فيتوجهون إليه بحديثهم ويذكرون منزلته التي كانت، ويعددون بعض مآثره ومناقبه، ويشيرون إلى حجم الكارثة التي ألمت بالقوم بهذا المصاب، وإلى الحزن الذي يعتصر قلوبهم، والحسرة التي تلوع النفوس، ويطلبون له المغفرة والثواب من رب العالمين، ويتوسلون إلى الله عز وجل أن يسكنه الجنة التي وعد بها المتقين.

وكان من الطبيعي أن تختص الخطب التي قيلت في تأبين الرسول (ص) ببعض إشارات لا نجدها في خطب التأبين الأخرى، وذلك بسبب المنزلة الدينية التي اختص بها الرسول الكريم (ص). ولعل خطبة أبي بكر الصديق (ر) في تأبين الرسول (ص) من أجود ما وصل إلينا في هذا الموضوع، يقول أبو بكر (ر): "بأبي أنت وأمي: طبت حيا وطبت ميتاً: وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة، فعظمت عن الصفة، وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة[33]، وعممت حتى صرنا فيك سواء[34]، ولولا أن موتك كان اختياراً منك[35] لجدنا لموتك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء، لأنفدنا عليك ماء الشؤون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وإدناف[36] يتحالفان ولا يبرحان. اللهم بأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلقت من السكينة لم نقم لما خلفت من الوحشة. اللهم أبلغ نبيك عنا، واحفظه فينا"[37]

بهذا العاطفة الصادقة، الحزينة الرزينة، يخاطب أبو بكر (ر) رسول الله (ص) مشيراً إلى حجم الفاجعة التي ألمت بالمسلمين، وإلى انقطاع الوحي بانتقاله (ص) إلى جوار ربه. وأبو بكر (ر) لا يدعو الله أن يسكن الرسول (ص) جناته، كما هو الحال في خطب تأبين المسلمين، فدخول الرسول (ص) الجنة أمر محتوم لا ريب فيه،

ولا حاجة إلى الدعاء، فهو (ص) شفيع أمته يوم القيامة، لذلك يطلب إليه أبو بكر (ر) أن يذكر المسلمين عند ربهم.

ولما قبض أبو بكر (ر) سجي عليه بالثوب، فارتجت المدينة بالبكاء، ودهش القوم كيوم قبض الرسول (ص) وجاء علي بن أبي طالب (ر) باكياً مسرعاً حتى وقف بالباب، وأبَّن أبا بكر فذكر إيمانه ومنزلته، وأفضاله، وقربه من الرسول (ص) قال: "رحمك الله أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غناء، وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحدبهم على الإسلام، وأحناهم على أهله... صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا..."(38)

وفي هذا النوع من الخطب تبدو تأثيرات القرآن الكريم بشكل واضح، بل إن بعض الخطب تمتلئ بالآيات القرآنية كما نجد في خطبة معاذ بن جبل التي قالها في تأبين أبي عبيدة(39). كذلك تطغى العاطفة الدينية الهادئة على خطب التأبين، ففي هذه اللحظات يقف الإنسان مع الموت ويرى مصيره المحتوم، ويرى في الفقيد التارك لمتاع الدنيا وزخرفها، المقبل إلى الحساب، وليس معه شيء من الدنيا إلا أعماله، صورة لما سيصير إليه غداً أو بعد غد، فتصغر الدنيا في عينيه، ويقبض قلبه بالإيمان.

غير أن هناك صورة فريدة في التأبين نجدها عند علي بن أبي طالب (ر) وهي خطبته في تأبين السيدة فاطمة (ر)، زوجته وابنة الرسول (ص)، إذ نراه يخرج عن المألوف، فهو لا يتوجه بكلامه إلى الفقيدة (ر) ولا يشير إلى مناقبها وأفضالها ومنزلها... وإنما يخاطب الرسول (ص) ويشكو إليه جزعه وحزنه فيقول: "السلام عليك يا رسول الله عني، وعن ابنتك النازلة في جوارك، والسريعة اللحاق بك: قل يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورق عنها تجلدي، إلاّ أن في التأسي لي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز..."(40)

وفي كثير من الأحيان كان الخطيب، في هذه المواقف، يتوجه بخطابه إلى الناس بعد التأبين، فيدعوهم إلى الاعتبار، ويحضهم على العمل الصالح والتقوى والإيمان، لأن ذلك هو الزاد النافع لهذه الرحلة الأزلية.

د- خطب الإملاك أو النكاح:

والخطب في هذا المقام عرف اجتماعي عرفه العرب في الجاهلية واستمروا عليه بعد ظهور الإسلام زمناً طويلاً، ولكن بعد أن ألبسوا خطبهم ثوبها الإسلامي وأعطوها ملامحها الإسلامية الجديدة. وكانت العادة في هذه الخطب تختلف عن العادات التي رافقت ألوان الخطابة الأخرى. فقد كان الخطيب يخطب جالساً، وهذا هو المقام الوحيد الذي

يجب على الخطيب أن يخطب فيه وهو جالس(41)..

والخطيب هنا قد يكون الخاطب نفسه، وقد يكون رجلاً آخر يمثله وعندئذ يكون من وجهاء القوم، وعليه أن يمدح الخاطب ويزكيه، ويعدد مناقبه وسجاياه الحميدة، ويذكر رغبته في الزواج ممن يرغب فيها، ويذكر الصداق أيضاً. وكثيراً ما كان هذا الموقف يدفعه إلى المجاملة فيهب الرجل الذي يمثله مزايا ليست فيه، ويثني عليه أكثر مما يستحق أحياناً. ومن شأن ذلك أن يدفعه إلى تكلف الجهد والعناد.

ولم تكن الخطبة في هذا المقام بالأمر اليسير، فقد روي عن عمر بن الخطاب (ر) أنه قال "ما يتصعدني(42) كلام كما تتصعدني خطبة النكاح"(43). ويعلل ابن المقفع صعوبة هذا الأمر، فيرى أنها تعود إلى "قرب الوجوه من الوجوه ونظر الحداق من قرب في أجواف الحداق ولأنه إذا كان جالساً معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، فإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية"(44). وذهب آخرون إلى أن السبب يعود إلى اضطرار الخطيب إلى مدح الرجل بما ليس فيه، والجاحظ لا يرى في هذا التأويل صحة إلا إذا كان الخطيب موقوفاً على الخطابة، إذ لم يكن الخلفاء الراشدون ليتكفلوا ذلك إلا فيمن يستحق المديح(45).

ومهما يكن من أمر فقد كان الخطيب يعاني مشقة كبيرة، وكان موقفه من الصعوبة بمكان حتى إن أحدهم مدح عليا (ر) فقال: "والله لقد رأيت عليا وإنه ليخطب قاعدا كقائم، ومحاربا كمسالم"(46). ويعني بقوله: "قاعدا" خطبة النكاح، ولولا مشقة هذا الأمر لما كان للنجاح فيه مزية تستحق الذكر. بسبب تلك الصعوبة كان يعرض للخطيب في هذه الخطبة من الحصر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر(47).

والسنة في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب(48)، غير أننا نجد في الخطب الإسلامية ما يخالف هذه القاعدة. فعندما أملك علي (ر) بفاطمة (ر) قال له رسول الله (ص): "أخطب، فقال: "الحمد لله شكراً لأَنْعُمِهِ وأياديه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه، وصلى الله على محمد صلاة تزلفه وتخطيه. والنكاح مما أمر الله ورضيه، واجتماعنا مما قدره الله تعالى وأذن فيه، وإن رسول الله (ص) زوجني ابنته فاطمة بصداق أثنتي عشرة أوقية فاسألوه واشهدوا"(49). فخطب الرسول (ص) خطبة أطول من هذه، حمد فيها الله عز وجل وأثنى عليه وأشار إلى أن الله سبحانه جعل المصاهرة نسباً لا حقاً وأمراً مفترضاً، وذكر رغبته في مصاهرة علي (ر) والمهر الذي أراده(50).

وهذه الخطب كانت تستهل في العادة. بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على النبي (ص) ويستشهد الخطباء فيها أحياناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات الصلة بأمر

الزواج وهي على العموم خطب قصيرة لا تكلف فيها.

هـ- الوصايا الاجتماعية:

وفي هذه الوصايا يتجه الموصي باهتمامه إلى الناحية الخلقية والاجتماعية، فيحث على التمسك بالأخلاق الحميدة، وحسن التعامل مع الناس، ونزع الحقد والبغض من النفوس، وترك الغيبة والنميمة، والتزام الصدق.... إلى غير ذلك من القيم الاجتماعية.

والواقع أن هذه الوصايا لم تكن جديدة في الإسلام، فقد عرفها العرب الجاهليون، ووصلت إلينا بعض وصاياهم الاجتماعية التي يحضون فيها على التمسك بالقيم العليا في ذلك المجتمع، ويبصرون الموصى له بآداب السلوك في المجتمع، ويرشدونه إلى أهم ما من شأنه أن يضمن له حياة كريمة. ولعل من أهم تلك الوصايا وصية قس بن ساعدة لأولاده "إن المعاتكفية البقلة، وترويه المذقة، ومن عيرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك وجد من يظلمه، ومتى عدلت على نفسك عدل عليك من فوقك، وإذا نهيت عن شيء فإنه نفسك... وكن عض العيلة(51) مشترك الغنى تسد قومك. ولا تشاورون مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهماً، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً. ولا تضعن في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك..."(52)

وإضافة إلى ما ذكرنا فإن الوصايا الاجتماعية تدعو إلى الالتزام بالدين الإسلامي وتشير، أحياناً، إلى الموت وما بعده من ثواب أو عقاب، وأنه المصير الذي لا مفر منه كقول علي بن أبي طالب (ر) في وصية له قبل وفاته: "أيها الناس، كل امرء لاق ما يفر منه في فراره. الأجل ساق النفس، والهرب منه موافاته... أما وصيتي فالله لا تشركوا به شيئاً، ومحمد صلى الله عليه وسلم فلا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين وأوقدوا هذين المصباحين وخلاكم ذم ما لم تشردوا..."(53) بل إن كثيراً من هذه الوصايا يطغى عليها الموقف الديني(54) شأنها في ذلك شأن بعض الوصايا السياسية.

ويلاحظ على هذه الوصايا قلة احتفالها بالآيات القرآنية. كما نجد أن الأثر الجاهلي يظهر واضحاً في بعض الأحيان، ولا غرابة في ذلك، إذ إن المجتمع الجاهلي الذي تقوض من الناحية النظرية باندثار أكثر مظاهره، ظل يعيش في أفكار بعض المسلمين وأحاسيسهم.

هذا الأثر الجاهلي يبدو جلياً في وصية قيس بن عاصم المنقري(55) لبنيه، إذ قال: "يا بني، خذوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني، إذا دفنتموني فانصرفوا إلى رحالكم، فسودوا أكبركم، فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم.. وعليكم بهذا المال فاصلحوه،

فإنه منبهة للكريم، وجنة لعرض اللئيم..."(56)

وهذه الوصايا، بشكل عام، قصيرة، وذات جمل قصيرة أيضاً، ويعتمد الموصي فيها أسلوباً مرسلاً بعيداً عن التكلف.

و- الخطب الوصفية:

ويمكن أن نضيف إلى الخطابة الاجتماعية لوناً من الوصف الخطابي المؤنق، كان يقال أمام الخلفاء والولاة، في الغالب، حيث كان الخليفة يطلب من الخطيب أن يصف له بلداً أو رجلاً، أو قوماً من الناس، أو أخلاق قوم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية.. أو غير ذلك فيقوم الخطيب بتلبية هذا الطلب محاولاً أن يظهر براعته في الوصف ومهارته الفنية في اللغة والأداء، معتمداً في ذلك على سعة اطلاعه على الموضوع ورأيه الشخصي فيه، وعلى ذوقه الاجتماعي والأخلاقي.

ومن ذلك ما يروى عن عقيل بن أبي طالب(57) عندما وفد على معاوية زائراً ومنتجعاً، فسأله هذا عن آل صوجان، وطلب إليه أن يخبره عنهم، فقال عقيل: "أما صعصعة فعظيم الشأن، عضب اللسان، قائد الفرسان، قاتل أقران، يرتق ما فتق، ويفتق ما رتق، قليل النظير..(58).

وعندما أرسل علي صعصعة بن صوجان(59) إلى معاوية. قال معاوية: هذا أحد سهام علي وخطباء العرب، فأدخله وسأله ليعرف قريحته أطبعاً أم تكلفا، فقال له: "ممن الرجل؟ قال: من نزار، قال: وما كان نزاري قال: كان إذا غزا نكس، وإذا لقي افترس، وإذا انصرف احترس، قال: فمن اي أولاده أنت، قال من ربيعة، قال: وما كان ربيعة؟ قال: كان يطيل النجاد، ويعول العباد ويضرب ببقاع الأرض العماد..."(60)، والحديث طويل، ويمضي على هذه الشاكلة. وقد تكون هذه المحاورة موضوعة، فقد رواها القالي في أماليه برواية أخرى غير التي رواها المسعودي(61) مع أنهما عاشا في زمن واحد (المسعودي ت:345، والقالي ت: 356).

ولكن مما لا شك فيه أن هذا النوع كان معروفاً في صدر الإسلام، وهو يعتمد على السجع كثيراً، وجمله قصيرة، وقد ترد فيه أمثال أو أشعار. وكان يجب على الخطيب الذي سيقوم في هذا المقام أن يكون مفوهاً بليغاً، سريع البديهة، ذا ثقافة واسعة.

تلك هي صورة الخطابة الاجتماعية في صدر الإسلام، لقد تطورت وبدأت ملامحها بالارتسام ولكنها لم تبلغ من النضج ما بلغته الخطابة الدينية والسياسية، وهذا الحكم ينطبق على ما وصل إلينا من هذه الخطب، ونحن لا نغفل ما للضياع من أثر في دقة الأحكام، ولكننا ندرك أن الخطباء تحدثوا عن الجانب الاجتماعي في الخطب السياسية والدينية، ولم تكن الحياة الاجتماعية منفصلة تماماً عن الحياة الدينية، ولا كانت القيم

الاجتماعية غير القيم الدينية. ولعل في ذلك تفسيراً لقلة الخطب الاجتماعية الخالصة في هذا العصر.

الهوامش

1- منبعا الأخلاق والدين: 38،39.

2- دراسة الإنسان (341).

3- مشكلة الإنسان (176).

4- جعفر بن أبي طالب هو ابن عم الرسول (ص) وأخو علي "وهو جعفر الطيار، وكان أشبه الناس بالرسول (ص) خَلقاً وخُلقاً، أسلم بعد إسلام أخيه علي بقليل. وكان الرسول (ص) يسميه أبا المساكين. وله هجرتان: هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة، وقد أقام في الحبشة حتى فتح خيبر حيث قدم إلى الرسول (ص) استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة وكان عمره إحدى وأربعين سنة، وقبل غير ذلك، (أسد الغابة: 287/1 وما بعدها).

5- السيرة النبوية: 359/1،360.

6- أحمد أمين: فجر الإسلام: 76.

7- يعر: يعيب ويلطح.

8- شرح نهج البلاغة: 160/9.

9- هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ... أسلم أول الإسلام، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد الرسول (ص) هاجر الهجرتين وشهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع الرسول (ص) وشهد اليرموك بعد النبي (ص) وشهد له الرسول (ص) بالجنة. توفي سنة أثنتين وثلاثين على الأغلب (أسد الغابة 259/3 وما بعدها).

10- أي لا يذكره إلا وقت الشدة.

11- إعجاز القرآن /175 ، 176.

12- أسد الغابة: 107/3.

13- عطارد بن الحاجب بن زرارة التميمي. وفد على الرسول (ص) مع وفد من قومه وأسلموا سنة تسع وكان سيداً في قومه، ولما أدعت سجاح التميمية النبوة كان عطارد ممن تبعها، ثم حسن إسلامه (أسد الغابة 411/31).

14- مَنّ عليه: أنعم عليه نعمة طيبة.

15- السيرة النبوية: 206/2.

16- ثابت بن قيس بن شماس أنصاري خزرجي كان خطيب الأنصار، وخطيب الرسول (ص) شهد أحداً وما بعدها، وقتل يوم اليمامة، في خلافة أبي بكر، شهيدا (أسد الغابة 229/1).

17- السيرة النبوية: 217/2.

18- هو مالك بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك... الهمذاني، كنيفة أبو

ثور، استعمله الرسول (ص) بعد إسلامه على قومه وأمره بقتال نقيض فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه. وكان شاعراً (أسد الغابة 294/4 ، 295).

19- النصية من القوم: الخيار منهم.

20- القلص (ج) قلوص، وهي من الإبل القوية، والنواجي (ج) ناجية، وهي المسرعة في السير.

21- خارف: لقب مالك بن عبد الله أبي قبيلة من همدان.

22- يام وشاكر قبيلتان من همدان باليمن.

23- المحل: المكر والكيد والجدب.

24- العنقفير: الداهية.

25- لعلع: اسم جبل (انظر معجم البلدان: 18/5).

26- اليعفور: ولد البقرة الوحشية، والصلع: الموضع الذي لا ينبت شيئاً.

27- القصر الفريد: 31/2.

28- رفع من حسيته: فعل به فعلاً فيه رفعته.

29- الركس: قلب أول الشيء على آخره، وارتكس: انتكس ووقع.

30- صفره: صبعه بصفره، أي تبدلنا بالدرهم الأبيض ديناراً أصفر، وتجعل فضتنا ذهباً.

31- القفيز: مكيال كان يكال به قديماً جمعه أقفزة.

32- المصدر السابق: 63/2.

33- المراد أنه مع ما خصصت به من النبوة والإيمان وعلو الدرجة عند الله عز وجل قد نزل بك الموت،
فأنت بذلك مسلاة للناس بمن يفقدون.

34- أي صار الجميع سواء من حيث الحزن والتفجع لفقدك، أهلك وقرابتك وعامة المسلمين.

35- إشارة إلى قوله (ص) "لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير".

36- دنف المريض وأدنف ثقل.

37- زهر الآداب: 66/1.

38- نهاية الأرب: 170/5.

39- انظر فتوح الشام: 242.

40- نهج البلاغة: 265/10.

41- البيان والتبيين: 118/1.

42- تصعده الأمر تصعيداً: شق عليه، كتصاعد به، وأصله من الصعود وهي العقبة المنكرة.

43- المصدر السابق: 117/1.

44- المصدر السابق: 117/1.

45- المصدر السابق والصفحة نفسها.

46- المصدر السابق: 118/1.

47- المصدر السابق: 134/1.

48- المصدر السابق: 116/1.

49- الأوائل: 162/1 ، 163.

50- المصدر السابق: 163/1 ، 164.

51- أي عند العيلة، والعيلة بالفتح الفقر.

52- المصون في الأدب: 175.

53- شرح نهج البلاغة: 116/9.

54- انظر وصية معاذ بن جبل في فتوح الشام: 244.

55- هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر، أسلم سنة تسع، وقال عنه الرسول (ص): إنه أهل الوبر، كان عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم (أسد الغابة: 219/4 ، 220).

56- شرح نهج البلاغة: 122/17.

57- هو ابن عم الرسول (ص) وأخو علي (ر) لأبويه وكان أكبر منه بعشرين سنة، أسلم قبل الحديبية وشهد غزوة مؤتة ثم رجع فعرض له مرض فلم يسمع له، لا يذكر في غزوة الفتح ولا حنين ولا الطائف، كان سريع الجواب المسكت للخصم وكان أعلم من قريش بن نسب وأعلمهم بأيامها. توفي في خلافة معاوية (أسد الغابة 422/3 وما بعدها).

58- مروج الذهب: 46/3، 47.

59- هو صعصعة بن صوجان بن حجر بن الحارث... كان مسلماً على عهد الرسول (ص) ولم يره، وكان سيداً من سادات قومه عبد القيس، وكان فصيحاً خطيباً لسناً ديناً فاضلاً، يعد من أصحاب علي (ر) وشهد معه حروبه. توفي في أيام معاوية (أسد الغابة: 20/3).

60- مروج الذهب: 48/3 ، 49.

61- انظر أمالي القالي: 226/2.

المصادر والمراجع

1- أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين بن الأثير، طبعة حجرية، بيروت، تا/بلا.

2- إعجاز القرآن للباقلاني - شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، 1951، مصر.

3- الأوائل أبو هلال العسكري - ت محمد المصري ورفيقه، وزارة الثقافة بدمشق 1975.

4- البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ، ت عبد السلام هارون، ط3، القاهرة 1968.

5- دراسة الإنسان - رالف لنتون - ت عبد الملك الناشف، بيروت 1964.

6- زهر الآداب - الحصري - المطبعة الرحمانية مصر 1925.

7- السيرة النبوية لابن هشام، ت مصطفى السقا وزميله - بيروت - تا/بلا.

8- فتوح الشام، محمد بن عبد الله الأزدي - تصحيح وليم نا سوليس، كلكته 1854.

9- فجر الإسلام، أحمد أمين، ط11، 1979، بيروت.

10- العقد الفريد - ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه وصححه أحمد أمين ورفيقاه، ط2، 1956.

11- مروج الذهب، المسعودي، ت محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

12- المصون في الأدب، أبو أحمد عبد الله العسكري، تحقيق عبد السلام هارون ط2، 1982.

13- منبعا الأخلاق والدين، هنري غستون - ت سامي الدروبي وزميله، ط2، بيروت 1984.

14- نهاية الأرب - النويري، دار الكتب المصرية، 1924.

15- نهج البلاغة، شرح أبي الحديد - ت محمد أبو الفضل إبراهيم - ط1، القاهرة 1957.

ABSTRACT

This essay tries to focus on one kind of rhetoric during the age of early period of Islam. This kind is called social rhetoric. Rhetoric had been developed and flourished during the early period of Islam effected by many different factors. The most important factor among them is the Islamic Revolution which was witnessed by the Arab society in that age. This revolution had a great influence on the structure of that society, and on the long Arabic history (ancient and modern).

This essay speaks about the main kinds of social rhetoric during that age, and it tries to show the interest of Islamic rhetoricians in the social side of Islamic life.